مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 18 العدد: 02 السنة 2026 ص 111 - 131

تاريخ الإرسال: 2026/06/13 تاريخ القبول: 2026/11/11
تاريخ النشر: 2026/11/16

سوسيولوجيا المثقف بين الهيمنة الثقافية والنقد الاجتماعي: غرامشي وعمار بلحسن أنموذجاً

The Sociology of the Intellectual Between Cultural Hegemony and Social Criticism: A Comparative Study of Antonio Gramsci and Ammar Belhassan

ط د. بلال بلخير[1]، أ د. ربيعة جلطي[2]
جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)،[1]billal.belkheir@univ-alger2.dz
جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، [2]rabiadjelti@univ-alger2.dz

الملخص:

المثقف هو الفاعل الرئيس في تشكيل الوعي الاجتماعي وقيادة الصراع الأيديولوجي داخل المجتمع، لهذا حظي باهتمام كبير في الدراسات السوسيولوجية لحقل الأدب. وكانت أعمال أنطونيو غرامشي حول المثقف من أهم الإسهامات في تحليل تكوين المثقفين ودورهم في صراع الهيمنة الثقافية داخل المجتمع. لا سيما حين فرق بين المثقف العضوي والمثقف التقليدي، ولهذا يهدف هذا البحث إلى دراسة مفهوم المثقف عند غرامشي وكيف تمثل عمار بلحسن هذا المفهوم في عملية مقاربته على الساحة الثقافية الجزائرية، حيث نستنتج أنه لم يكتفِ فقط بنقل المفاهيم النظرية بل أعاد توظيفها وتكييفها بما يتوافق مع خصوصية المجتمع الجزائري، مبرزا دور المثقف وليد الأزمات التاريخية والتوترات الفكرية والانقسامات المرجعية التي تهيمن

على الساحة الثقافية في الجزائر وما ينجر عنها من تراجع الفكر النقدي وتفشي الرداءة داخل المؤسسات الثقافية.

الكلمات المفتاحية: الثقافة، المثقف العضوي، المثقف التقليدي، الهيمنة الثقافية، المثقف الموظف، السوسيو – ثقافة..

Abstract:

The intellectual is a key actor in shaping social consciousness and leading ideological struggle within society. Consequently, the concept has received significant attention in the sociology of literature. Antonio Gramsci's writings on intellectuals represent a major contribution to understanding their formation and role in the struggle for cultural hegemony, particularly through his distinction between the organic and the traditional intellectual. This study examines Gramsci's conception of the intellectual and explores how Ammar Belhassen appropriated it in his reading of the Algerian cultural sphere. The findings reveal that Belhassen did not merely adopt Gramscian concepts but adapted them to the specific context of Algerian society, highlighting the intellectual's role amid historical crises, intellectual tensions, and competing cultural references, as well as their impact on critical thought and cultural life.

Keywords: Culture, Organic Intellectual, Traditional Intellectual,CulturalHegemony, Institutional Intellectual, Socio-Culture…

المؤلف المرسل: بلال بلخير، الإيميل: BILALBELKHIR96@GMAIL.COM

1.مقدمة:

يعد موضوع الثقافة والممارسة الثقافية من أكثر الموضوعات التي لها حضور واسع في مجال الدراسات السوسيولوجية لحقل الأدب. كونها تمثل أحد أهم الأدوات التي تستخدم لتحليل العلاقات بين الإنتاج المعرفي الرمزي والبنية الاجتماعية، وبالرغم من أهمية المفاهيم المتعلقة بموضوع الثقافة إلا أنها تثير إشكاليات متعددة تتعلق بدينامية نقل هذه المفاهيم من سياقاتها التي نشأت وتبلورت فيها إلى سياقات تختلف عنها في بنيتها الثقافية والأيديولوجية بدرجات اختلاف متفاوتة. ومن أبرز مفاهيم الثقافة تداولا في حقل سوسيولوجيا الأدب مفهوم المثقف الذي كان للفيلسوف الإيطالي أنطونيو غرامشي دور مرجعي بارز في مساءلته نظريا، وبلورة أساليب تطبيقه في ساحة الصراع الاجتماعي والطبقي الإيطالي خاصة والأوروبي عامة.

وبالانتقال إلى واقع الصراع الاجتماعي في السياق الثقافي الجزائري تواجهنا إشكالية في عملية انتقال هذا المفهوم وفق شروطه النظرية التاريخية والسياسية والطبقية، ما يؤدي إلى خضوع المفهوم لتحويرات وتكييفات دلالية وظيفية من قِبل المترجم أو الناقد المستقبل.وبالتالي يصبح مفهوم المثقف عند أنطونيو غرامشي حين قسمه إلى مثقف تقليدي ومثقف عضوي يُقابل في غالب الأحيان في نمطيات وثنائيات تقتصر على لمس حواشي المفهوم دون مركزه، ولا تستلهم منه سوى توصيفا عاما للمثقف الملتزم – الغير ملتزم أو المثقف الموظف – المثقف الناقد.. إلخ، وهذا ما يسبب تخطي لحقيقة المفهوم كونه أداة تحليل سوسيولوجي تطبيقي دقيقة.

ولعل محاولة عمار بلحسن في هذا الإطار يمكن اعتبارها من الدراسات النقدية الجدية التي أعادت تعريف المثقف حسب تصور أنطونيو غرامشي في السياق الثقافي الجزائري، وذلك انطلاقا من شروط الإنتاج الثقافي واستنادا إلى خصوصيات

المجتمع الجزائري السياسية والتاريخية واللغوية. والحدود الإبستمولوجية النظرية لمفهوم المثقف عند غرامشي ينطلق هذا المقال لمساءلة إمكانية نقل مفهوم المثقف وما مدى صلاحيته في صيغته الغرامشية لتحليل المناخ الثقافي الجزائري بعد الاستقلال، وكذا توضيح الطرق التي تمكن من صياغة شروط مرجعية لولادة المثقف الحقيقي أو كما يسميه عمار بلحسن: المثقف الحصيلة.

فما وضعية المثقفين الجزائريين بعد الاستقلال؟ وهل يوجد نموذج المثقف العضوي في الساحة الثقافية الجزائرية؟ وماهي الظروف المناسبة لولادة المثقف الحصيلة؟ وللإجابة على هذه الأسئلة يقوم هذا المقال على تفكيك مفهوم المثقف في أصوله النظرية، ثم اقتفاء أثار انتقاله للسياق الثقافي الجزائري من خلال مقاربة سوسيو–ثقافية للمجتمع الجزائري وتحولاته التاريخية والاجتماعية والاقتصادية.

2. الثقافة «Culture»:

مصطلح فضفاض يحيل إلى معاني ومفاهيم شمولية تتعدى الجانب الأدبي أو الفني، وإلى عوالم كبيرة مغرقة في الفكر والسياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع وهذا لأن الثقافة تعبر عن كل نشاط يصنع وعياً، أي الوعي بمختلف أشكاله. وعليه يصبح بإمكاننا فقط أن نقدم وصفا عاما موجزا للثقافة بأنها "طريقة شاملة للحياة كلغة، كإنشاء تمثيلي، كأداة، كممارسة، كترتيبات فضائية، كسلطة، كشيء مصنوع، كرسمة أو هامشية كجماهيرية أو شعبية"[1]. فالثقافة منظومة فكرية علمية شاملة للحياة ومنظمة للوعي الجماعي لفئة اجتماعية معينة تنظم رؤيتها للعالم، وتصنع طريقة تفكيرها، وتوجه اختياراتها في جميع الميادين الحياتية. في الأدب والموسيقى والعمارة والاقتصاد والدين والفلكلور.

والثقافة تعبر عن مجموع القيم والمبادئ العامة التي يتواضع عليها فئة معينة من البشر في مكان وزمان محددين لتتطور وتتحول بعدها إلى معتقدات ملزمة

لكل فرد من تلك الجماعة ومن ينتسبون إليها، ولا نعني بالمعتقدات بأنها عادات جامدة ومتصلبة. بل هي قوانين تحدد الجيد والسيء والمقبول والمرفوض داخل إطار المجتمع وتتغير بتغير الظروف الاقتصادية والسياسية والأحداث المؤثرة في سيرورة التاريخ. ونتيجة لهذه العملية التاريخية الطويلة تترسب تلك المعتقدات في شخصية كل فرد من الجماعة فتشكل هويته والأنا التي تميزه عن فرد آخر ينتمي لمجموعة تاريخية أخرى وفي هذا الباب "يميز أبرام كاردينر Abram Kardiner 1891– 1981 بين الشخصية الأساسية وبنية الأنا التي تعبر عن تكيفه الفريد مع البيئة داخل محيطه الثقافي وعليه تصبح الأنا ترسب ثقافي بامتياز"[2]فشخصية الفرد لا تفهم بمعزل عن السياق الثقافي الذي يسود المجتمع الذي نشأ فيه واستقى فكره ووجدانه من ينابيعه الثقافية.ويعبر عن هذه المعتقدات بمصطلح الأيديولوجيا التي تتبناها وتدافع عنها الطبقة المسيطرة في المجتمع، والتي تسعى جاهدة لإبقاء هذه المفاهيم والمعتقدات تعمل في دينامية دائمة عن طريقإعادة إنتاجها ونشرها في صفوف أعضاء الطبقات الثانوية. فتسند هذه الوظيفة طبعا للفاعليين الاجتماعيين الذين يقف في مقدمتهم المثقفين الذين يمثلون النخبة في المجتمع.

1.2 المثقف:The Intellectual

ظهر مفهوم المثقف في التصور الحديث مع قضية «درايفوس» الضابط اليهودي الذي اتهم بالتجسس لصالح ألمانيا، قسّم المجتمع الفرنسي على إثرها إلى فريقين مُدين له ومُدافع عنه. وكان لدفاع إميل زولا Emile Zola 1840–1902 عن درايفوس أثر كبير خلّف صراعاً فكرياً وسياسياً على الساحة الفكرية والثقافية والاجتماعية في فرنسا ومن ثم في أوروبا والعالم. أدى ذلك إلى تبلور دور المثقف الملتزم في هذا الصراع، وبالتالي أكسبه صفة العضوية كفاعل داخل مجتمعه وطبقته.

وعند الحديث عن دور المثقف التنظيمي في المجتمع لابد من الانطلاق من دراسات المثقف والفيلسوف الإيطالي أنطونيو غرامشي Antonio F-Gramsci 1891-1937 الذي كان من المفكرين الأوائل الذي عنوا بالتنظير للثقافة وتكوين المثقفين وتحليل آليات اشتغالهم في الحياة الاجتماعية. وقد جاء اهتمام غرامشي بمسألة المثقفين حين كان في سجن الفاشية، حين كان يتساءل عن الأسباب التي حالت دون تحقق الثورة الشيوعية التي اعتبرها كارل ماركس حتمية تاريخية ونتيجة بديهية للصراع الطبقي في دول أوروبا الغربية، لا سيما أن الظروف الموضوعية التي نص عليها ماركس لحدوث الانفجار الذي يطيح بالنظام الرأسمالي قد بلغت نصابها. فخلص غرامشي إلى أن سيطرة الطبقات الحاكمة على الطبقات المحكومة والخاضعة غصبا لا تتم بالقوة الاقتصادية والسياسية فحسب، بل عن طريق السيطرة الرمزية التي تستخدم أساليب القوة الناعمة كالتعليم والأدب والثقافة والدين والإعلام كوسيلة لفرض الهيمنة الثقافية على الجماهير. من خلال أجهزتها الأيديولوجية كالمدارس ودور العبادة ووسائل الإعلام ودور النشر وغيرها لتجعل أفراد الطبقات الثانوية يسيرون على الخطى التي رسمتها المنظومة القائمة دون مقاومة وهذا ما يسمى بالهيمنة الثقافية، والتي يشرف على ترسيخها بطبيعة الحال مجموعة من المثقفين الذين يروّجون للأيديولوجيا الرسمية للنظام ويبرّرون لها لتبدو طبيعية وبديهية في الأذهان.

يصر غرامشي أن المثقف عليه ألا يظل حبيس برجه العاجي ويخرج من عزلته، وهنا "تمثل الحجة البسيطة التي تطرحها محاولة غرامشي تشكيل المثقفين بأنه لا يعتبر تصور المثقفين من حيث هم فئة اجتماعية متميزة مستقلة عن الطبقة سوى خرافة، فكل البشر عند غرامشي يمكن أن يكونوا مثقفين فيما دل عن امتلاك الذكاء واستخدامه. ولكنهم ليسوا كلهم مثقفين من حيث الوظيفة الاجتماعية."[3]

ويستدل غرامشي على الفكرة التي تقول أنّ كل البشر يمكن أن يكونوا مثقفين بأن كل عمل حتى وإن كان يدوي يكمن فيه حظ من التفكير ولا يقوم به العامل بصورة اعتباطية بل يشغّل فيه عقله وتفكيره وذكاءه، وعليه أن يمتلك الحد الأدنى من المؤهلات الفنية والإبداعية، وهي نوع من الثقافة في ذلك المجال. فالعمال في المصنع والحرفيون لا يقومون بتكرار حركة ميكانيكية (كغوريلا مدربة حسب وصف فريديريك تيلور للعامل اليدوي)[4]، بل يملكون معرفة عملية وخبرة تتراكم عبر التجارب الكثيرة التي يعبر عنها بالذكاء التقني الذي يجمع بين الخبرة والتخطيط. لكن هل يمكن أن نطلق على كل عامل صفة «المثقف»؟"يمكن تعريف المثقفين بصفتين: حد معين من الأهلية المعرفية وتحسس شديد بالقيم الاجتماعية المركزية، فهم الأفراد الذين يحملون خبرة أو أهلية معينة على الصعيد المعرفي، ويظهرون اهتماما خاصا بالقيم المركزية السائدة في مجتمعهم."[5]فحديث غرامشي عن المثقفين هو حديث عن وظيفة المثقف التنظيمية داخل البنية الاجتماعية وهنا يميز غرامشي بين نوعين من المثقفين في المجتمع مثقفين تقليديين ومثقفين عضويين.

2.2 أنماط المثقفين عند أنطونيو غرامشي

1/المثقف التقليدي:The Traditional Intellectual

المثقف التقليدي هو المثقف الذي لديه وهم الاستقلال الذاتي عن أي طبقة اجتماعية غير طبقته المرتبط بها عضويا. ويقصد غرامشي بالمثقفين التقليديين تلك الفئة من "الأدباء والعلماء وغيرهم الذين تحيط بموقعهم في فواصل المجتمع هالة مستمدة من العلاقات الطبقية السائدة والحالية، وتخفي روابطهم بمختلف التكوينات الطبقية التاريخية."[6] فهم مجموعة المثقفين الذين برزوا انطلاقا من بنية اقتصادية ظهرت على ساحة التاريخ وانتهت وارتبطوا عضويا بالطبقة الاجتماعية المسيطرة فيها، ويمثلون استمراريتها التاريخية دون انقطاع. وأكثر من يمكن أن يتصفوا بهذا

بتلك الصفة هم "الفلاسفة الذين يقدمون أنفسهم كامتدادٍ لآباء الفلسفة العظام سقراط وأفلاطون وأرسطو، وكذلك رجال الكنيسة الأكليروس الذين يقدمون أنفسهم كاستمرارية لمكانة السيد المسيح الروحية والقيادية على البشرية."[7] فبعد أفول الطبقة التي أنتجتهم قَدّمت تلك الفئة من المثقفين بما يملكونه من رأس مال رمزي وانتمائهم بتعبيربيير بورديو Pierre Bourdieu 1930–2002 إلى حقل ثقافي واحد نفسها كطبقة من المثقفين المستقلين عن الطبقة الجديدة المسيطرة.وهذه الخصائص هي التي تعطي للمثقفين التقليديين الوهم الأيديولوجي بالاستقلال عن الصراع الحاصل في المجتمع باعتبارهم يمثلون الحقيقة المجردة، لكن في الواقع لا يفلتون من إعادة إنتاج التصورات والقيم المهيمنة والسائدة بدون وعي. مما يُسهم في ترسيخ الوضع الراهن وإعادة انتاج علاقات وقيم النظام. ولهذا تمثل هذه الفئة هدف الطبقات الجديدة لاستيعابها بالانضمام إليها لإعادة تدويرها وإدخالها في النظام الجديد. وذلك بما تحمله من رأس مال رمزي يعود عليها بالقدرة على التأثير في الجماهير لاستيعابهم في المنظومة الطبقية الجديدة.

2 /المثقف العضوي: The Organic Intellectual

المثقف المرتبط عضويا بطبقته يعبر عن أهدافها وطموحاتها ويعمل على إيجاد حلولٍ لمشاكلها، تحركه روح المسؤولية وتميزه النزعة القيادية التي تمكنه من قيادة جماهير الطبقة التي ينتمي إليها، وتنظيم صفوفهم وتوعيتهم بوظيفتهم اتجاه طبقتهم. والتي تنسج وتبني رؤيةً للعالم خاصة بهم تتجسد من خلال نشاطهم وكفاحهم، ويخلص من كل ذلك بفكرة مركزية مفادها " أن كل فئة اجتماعية تتواجد في عالم الإنتاج الاقتصادي إذ تؤدي وظيفتها الأساسية وتخلق معها بشكل عضوي طبقة أو أكثر من المثقفين تقدم لها التجانس والوعي بوظيفتها، لا في المجال الاقتصادي فحسب بل أيضا في المجالين الاجتماعي والسياسي"[8]

إذن فالمثقف العضوي هو مثقف ميداني بالنسبة لبيئته التي ينشط فيها،فهي مجال عمله سواء كان أستاذًا جامعيًا أو موظفًا حكوميًا أو صحفيًا، أو عاملاً في مصنع. المهم أنه يلتزم بواجبه اتجاه طبقته داخل البنية الاجتماعية ونظام علاقاتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وعليه يصبح المثقفين العضويين عند غرامشي يمثلون "العنصر المنظم والمفكر في طبقة اجتماعية أساسية. مهنة هؤلاء المثقفين العضويين لا تميزهم بقدر ما تميز وظيفتهم في توجيه أفكار وتطلعات الطبقة التي ينتمون إليها، وعليه "يفرض غرامشي على أي طبقة تدريب وتثقيف نفسها في إدارة المجتمع، واكتساب ثقافة ونفسية الطبقة المهيمنة."[9] وعليه يطرح غرامشي فكرته المركزية حول دور المثقف العضوي في صناعة الهيمنة للطبقة، فلتحقيق الهيمنة لابد أن تهتم الطبقة بالبنية الفوقية من خلال خلق وبناء ثقافة خاصة بها وخلق نخبة من المثقفين الذين ينظمون المجتمع ويصنعون أشكالا جديدة من التفكير تستند إلى رؤية للعالم نابعة من تجربتها الخاصة في المرتبة الأولى، وكذلك عبر تمثل نشاط الطبقة المهيمنة عبر قنواتها الخاصة كالاجتماعات والمؤتمرات والنقاشات، ولكن هذا التعريف الغرامشي للمثقف أدى إلى توسيع دلالي للمفهوم مما هدد بفقدان الحدود التمييزية للمصطلح. وبالتالي لابد من إجراء عملية تضييق للمفهوم ووضع حدود قصوى لقبول مصطلح المثقف، "وعليه يمكن للمرء أن يقول بأن كل البشر مثقفون ولكن ليس لكل إنسان وظيفة المثقف في المجتمع وعندما يميز المرء بين المثقفين وغير المثقفين فإنه لا يشير في الواقع إلا إلى الوظيفة الاجتماعية المباشرة للفئة المهيمنة من المثقفين."[10]

فالمثقف العضوي عنده لا يكتفي بالمعرفة التقنية العلمية فحسب بل يسأل عن القيمة فيما الذي ينبغي أن يكون؟ وما العادل؟ وما المشروع وما الممنوع؟ وبالتالي يشارك في النقاش العام حول مستقبل المجتمع.

3. المثقف الجزائري بحث عن الذات داخل البنية الاجتماعية:

حين ننظر نظرة بانورامية على مسار المجتمع الجزائري عبر تاريخه وصولا إلى حاضره، نجده يتميز بخصوصية تاريخية معقدة نسبيا وغير منسجمة خلافا لجيرانه الأقارب والأباعد. حالت دون تشكيل بنية اجتماعية مستقرة ترجع أسبابها لجملة من العوامل السياسية والحضارية والاقتصادية والبنيوية، فلم يشهد المجتمع الجزائري تطورا طبيعيا يسمح بتشكل طبقات اجتماعية واضحة، أو بناء مؤسسات ثقافية مستقلة تساعد على خلق أنتلجانسيا ثقافية نابعة من رحم المجتمع، ومستندة على وضعيته السياسية "لهذا كان تاريخ الجزائر الثقافي أقل ثراء وعمقا من نظرائه في الأقطار الأخرى، وأكثر جفافا في ينابيعه الحضارية التي تفتقد للمؤسسات الثقافية والعلمية ذات الاستمرارية التي تساهم به في بناء الشخصية والهوية الثقافية لأفراده."[11] وهذا لا ينفي وجود استثناءات في بعض المراحل التاريخية التي شُيدت خلالها مراكز إشعاع حضاري وعلمي وثقافي كبيرة في تلمسان وبجاية، وكانت مركزا علميا وحضاريا مهما في منطقة الشمال الإفريقي.وبعد دخول الجزائر مرحلة الاستعمار الفرنسي. والتي كانت مرحلة إعادة تشكيل البنية الاجتماعية في الجزائر،التي تعرضت فيها لحملة تفكيكية منظمة لكل البنى الثقافية التقليدية وتعطيل المؤسسات العلمية المحلية (زوايا، كتاتيب، جمعيات، نوادي)، وأحلت مكانها النموذج الثقافي الفرنسي الذي انتهج سياسة التغريب ومحاربة اللغة والأدب العربي لصالح اللغة والثقافة الفرنسية.تسبب ذلك في انقطاع حاد للاستمرارية التاريخية والثقافية للمجتمع. وأنتج فئة من المثقفين الجزائريين مزدوجي اللغة والمرجعية الحضارية. وبالتالي أصبح في الجزائر صنفان من المثقفين: حداثيون خريجو المدرسة الفرنسية، وتقليديون ممن درسوا في الكتاتيب والزوايا والنوادي الثقافية.

فاضطراب المرجعيات الفكرية عند النخب المثقفة حال دون تشكل أنتلجانسيا جزائرية منسجمة ومستقلة خلال الثورة وبعد الاستقلال. وما زاد تعميق مشكلة المثقفين في جزائر الاستقلال تبني الدولة للمشروع التعليمي العام والإجباري فظهرت فئة من خريجي الجامعات الوطنية التي لم يواكب ظهورها بناء حقل ثقافي مستقل. فأسهم هذا الوضع في تفريخ نوع من المثقفين الغير منتجين للثقافة والمنخرطين في مشروع إعادة إنتاج أساليب التفكير والقيم المحددة من المؤسسة السياسية ويخضعون لإكراهاته التنظيمية ومنطقه الإداري. مما تسبب في تعطيل قريحتهم النقدية التي كان يجب أن تعمل على تشييد مشروع فكري ونقدي مستقل عن أروقة النظام.

لكن لا يمكننا فصل هذه الوضعية عن السياق والظرف التاريخي الذي كان فيه بناء الدولة هو المشروع الوطني الذي يجمع كل أطياف الشعب، بعد فترة استعمار طويلة لم تعرف فيها الجزائر معنى الدولة بمفهومها المركزي والمؤسسي. إلا أنه لا يصح أن نعمم القول بأنهم كانوا مثقفون تقليديون بالمعنى السلبي للمفهوم، لأن قسما كبيرا منهم كان يحمل مسؤولية تتقدم على أولوية وظيفة المثقف النقدية، فاختزال دور هذه الفئة فقط في مهمتها الوظيفية داخل الجهاز المؤسسي للدولة يظل قاصرا.

والأصح هو أنهم كانوا مثقفين منتمين والمثقف المنتمي: "هو المثقف الذي من خلال إقراره بشرعية السلطة يحترف النقد، ليبني الصرح الثقافي الذي لا يقدر الخطاب السياسي السائد أن يشيده."[12] لأنه لا يقف على الحياد من قضايا مجتمعه بل يبرز دوره من خلال ارتباطه بقضيته الوطنية والاجتماعية فيوظف معرفته في سبيلها إلا أنه يختلف عن المثقف العضوي لاختلاف الموقع والهدف فانتماءه هذا

يعرضه لإمكانية سقوطه في خدمة أيديولوجية المؤسسة المنتمي إليها فيتحول لأداة تبريرية للسلطة ويفقد الاستقلال النقدي الذي يتمتع به المثقف العضوي.

وفي هذا السياق يرى السوسيولوجي الجزائري عبد القادر جغلول "أن التفرقة التي يقوم بها غرامشي بين المثقف العضوي والمثقف التقليدي غير قابلة للتطبيق على واقع البيئة والوسط الثقافي الجزائري الحالي فما هو موجود يتجسد في المثقفين الذين يتطورون ويشتغلون في أجهزة الدولة، أي المثقفين الموظفين."[13]

لكن يمكن للباحث تطبيق نظرية غرامشي على المجتمع الجزائري، من خلال اعتماد دراسة مرنة هدفها توسيع المفهوم الغرامشي، فبدلا من المثقف التقليدي والمثقف العضوي يصبح لدينا المثقف الموظف والمثقف النقدي. فالمثقف الموظف الوكيل للدولة في عملية التنمية هو "مثقف يقوم بعملية نقد ولكنه ليس مثقفا نقديا، نظرا لكونه تماما كالمثقف المقلد ينطرح داخل نموذج أو منوال معطى. وما ينقده ليس هذا النموذج بل ملاءمة وتكيف أو لا تكيف هذا النموذج نفسه مع التطبيق المجسد والملموس له."[14]

أي أن نقد المثقف الموظف للنظام ليس نقدا أصيلا بل هو نقد ميداني للنموذج المؤسساتي يحدد مدى ملاءمته مع تطبيقه المجسد على أرض الواقع، وهنا تصبح مهمته مهمة روتينية ما يلبث أن يتحول خلالها إلى صورة عاكسة للنظام القائم الذي يفترض به نقده وسرعان ما تدب إليه الرداءة، ويفقد بسببها كل مرونة وديناميكية يمكن أن تنتج أنتلجانسيا نقدية تملك رؤية جديدة للعالم."تبعا لهذا لا يمكن أن يحدث في قمة الهرمية الثقافية إلا شيئان إثنان: الأول وجود مثقفين رديئين والثاني هو بروز فرديات مثقفة حقيقية استطاعت أو تستطيع الظهور ولكنها ليست ممثلة للقاعدة ولا معبرة عنها لأنها فرديات استثنائية سرعان ما تصمت رغم إنتاجها الثقافي الجيد."[15]

فبسبب وضع الحقل الثقافي السائد يلجأ المثقفون إلى نشر إنتاجاتهم الثقافية في دور النشر الأجنبية، سواء في أوروبا أو في بلدان المشرق العربي. وبالتالي نخلص بأن مشكلة المثقف الجزائري ليست في شخص المثقف نفسه، بل هي مشكلة في الحقل الاجتماعي والثقافي وعلاقاته الممسوخة الغارقة في مستنقع الرداءة. ولهذا يقترح ادوارد سعيد أنه "يجب على المثقف ألا يحترف الثقافة، بل عليه أن يستعملها كهواية يمارسها بعيدا عن السلطة وكل ما يجسد الهيمنة الثقافية في المجتمع. فالخطر الذي يهدد دور المثقف في المجتمع هو أن ينخرط في المؤسسة التي يفترض به أن ينقدها.[16] وهذا ما يجعله في مواجهتها بدلا من خدمتها، إلا أن قول الحقيقة للسلطة "ليس ضربا من المثالية الخيالية بل يعني إجراء موازنة دقيقة بين جميع البدائل المتاحة، واختيار البديل الصحيح ثم تقديمه بذكاء في المكان الذي يكون من الأرجح فيه أن يعود بأكبر فائدة، وأن يحدث التغيير الصائب."[17] فالمثقف لابد أن يتمتع بذكاء في اختيار الوقت والمكان والطريقة التي يقدم فيها نقده للسلطة الذي لا بد أن يكون نقداً بنائياً هدفه التعديل لا الهدم. والتطوير لا التخريب.

1.3 محاولة بناء نمطية للمثقف الجزائري في تصور عمار بلحسن:

تمثل دراسة عمار بلحسن لواقع الثقافة في الجزائر في كتابه الموسوم ب أنتلجانسيا* أم مثقفون في الجزائر؟ مقاربة تحليلية لتفكيك جدلية الصراع بين السلطة السياسية والنخبة الثقافية من منظور سوسيو–ثقافي. ويسعى في ذلك للوصول إلى موقع الثقافة داخل المجتمع وداخل منظومة الدولة الجزائرية الحديثة انطلاقا من نظرية أنطونيو غرامشي حول المثقف العضوي والمثقف التقليدي.

ويتم ذلك دون فصل للمفاهيم عن مراجعها النظرية والفلسفية والسوسيولوجية، أو تجريدها عن ظرفيتها التاريخية وسياق المجتمع الجزائري لأن ذلك سيؤدي حتما إما إلى السقوط في النظرية وإلغاء الخصوصية الواقعية للمجتمع

الجزائري، أو إلى تجاهل النظرية بدعوى خصوصية الظروف الاجتماعية والتاريخية. ما يفضي إلى إفراغ المفهوم من محتواه، وهو ما يتعارض وفلسفة غرامشي التي تؤكد على ضرورة الترابط الجدلي الذي يجمع بين النظرية والممارسة بما يسميه بفلسفة البراكسيس. وهذا يتحقق حسب بلحسن من خلال " البحوث والدراسات عن الفقهاء والأدباء والعلماء وغيرهم فضلا عن التحليلات العلمية التي تتناول شبكة علاقات مختلف أنواع المثقفين الجزائريين بالبنيات المجتمعية تاريخيا وحاليا، وما يرتبط بها من تمثلات ملموسة لعلاقات التثاقف والتفاعل مع المنظومات العلمية والفكرية والأيديولوجية في بعديها المحلي والكوني.[18]فبدون الارتكاز على دراسات تحليلية ميدانية ملموسة عن الواقع الثقافي، يستحيل بناء نظرية عامة عن المثقف في الجزائر.

وفي تحليله للواقع الثقافي الجزائري ينطلق عمار بلحسن من حدثين بارزين أحدثا صدى واسعا شكَّل منعطفا في الساحة الاجتماعية والثقافية الجزائرية. "الحدث الأول هو تنظيم الحوار الوطني حول الثقافة الذي جمع عددا كبيرا من المثقفين الجزائريين صيف عام 1981. أما الحدث الثاني فيتجسد في وقوع سلسلة من الاحتجاجات الشعبية وفي مقدمتها الربيع الامازيغي عام 1980 الذي مثل حراكا ثقافيا بامتياز،."[19]طرحت فيها جملة من القضايا الثقافية للنقاش بمشاركة الفاعلين الاجتماعيين غايتها تحديد السياسة الثقافية والاجتماعية والسياسية للبلاد.

تكشف لنا هذه الأحداث عن واقع التحولات الثقافية في الصراع الرمزي داخل الحقل الثقافي الجزائري، والذي تتقاطع فيه محددات البنيات الاجتماعية والسياسية مع رهانات الهوية واللغة، وهو صراع حتمي تكون نتيجته إما إعادة إنتاج الهيمنة وإما مقاومتها بفرض هيمنة مضادة لها.انطلاقا من هذه الوضعية المأزومة يحاول عمار بلحسن بلورة إشكالية تحليلية حول المثقف الجزائري من خلال طرح

سؤالين مركزيين: هل توجد أنتلجانسيا في الجزائر؟، وهل يمكن بناء نمطية للمثقفين بالاستناد إلى التمييز الذي اقترحه أنطونيو غرامشي بين المثقف التقليدي والمثقف العضوي؟

في محاولة للإجابة عن السؤال الأول يشير بلحسن إلى أن "هناك إجماع شبه كلي على عدم وجود أنتلجانسيا جزائرية كمجموعة مثقفة اجتماعية منظمة مستقلة ذاتيا وأصيلة وعضوية، ومتخلصة من التبعية النظرية الفلسفية والمادية لأنتلجانسيات المركز المزدوج الأوروبي والعربي."[20] ويرى أن سبب هذا الغياب لا يعود في مجمله إلى نقصٍ في شروط ولادة الأنتلجانسيا في الجزائر، فعلى الرغم من توفر جميع الشروط المادية والثقافية والتاريخية والاجتماعية الطبقية لولادة أنتلجانسيا جزائرية إلا أنها تعاني من اختلالات بنيوية حالت دون تشكلها. وما يوجد بدلا من ذلك هو فقط مثقفون متفرقون ومشتتون يسميهم "بالشغيلة الذهنيين الذين يقتصر دورهم في إعادة صياغة وإنتاج الخطابات الأيديولوجية العالمية والعربية، ومقسمون بين دائرتين ثقافيتين متمايزتين غير متحاورتين مختلفتي المراجع الثقافية والتراثية واللغوية."[21]

لأنهم غير قادرين على بناء مشروع فكري مستقل قائم على حوار حقيقي بين مختلف الطوائف والتيارات الفاعلة داخل المجتمع وعليه لا غرابة في أن تتسم الساحة الثقافية في الجزائر والمناخ الفكري في ظل هذه الظروف بملامح من الرداءة المعممة حيث تسود "قيم الاستلاب والتبعية وانعدام التفكير الحر والديموقراطية والمصلحة والانتهازية، وسيطرة المجتمع السياسي والدولة على الحياة الاجتماعية والثقافية والمجتمع المدني."[22]

وعليه يخلص عمار بلحسن أن غياب المثقف النقدي بالمعنى العضوي في الجزائر كما بلوره غرامشي. ناتج عن غياب أنتلجانسيا جزائرية قادرة على الاضطلاع

بوظيفتها النقدية والتنظيمية، فما يوجد فقطهو خليط من أنماط المثقفين: "شغيل مثقف، مثقف موظف ومقلد، ميداني، مزيف، انتهازي، بيروقراطي، تابع، زبون، مستلب،...ليس هناك مثقف عضوي، ليس هناك أنتلجانسيا نقدية."[23] وهذه التصنيفات التي يوردها عمار بلحسن ماهي إلا مظاهر تعكسها الأنماط المختلفة والمتباينة من المثقفين نتيجة التكيف مع النسق القائم بدلاً من نقده ومساءلته. كما أن لعامل التمويل دورا بارزا في تقييد حرية المثقفين والذين هم في مجملهم موظفين يعتاشون من مرتباتهم التي تمنحها لهم الدولة، وهذا ما يحد من استقلاليتهم الخاصة التي تمثل العنصر الفاعل في انتاج قواعد ومعايير الحقل الثقافي المستقلة وتكرس التبعية. فالمثقف الذي يرتبط ببنية النظام ويخضع لآليات الترغيب والترهيب الموجهة نحوه يتحول إلى فاعل اجتماعي ذا دور هامشي مفرغ من محتواه. ولا يؤدي دوره الحقيقي المنتظر منه.

هذه الأسباب تحول دون تكوين مثقفين جزائريين في مجموعة منسجمة ومستقلة تقدم رؤية كلية ومشروع مجتمعي شامل للواقع الاجتماعي وللعالم، وقادرة على استيعاب الاختلاف بين مختلف الفئات والتيارات الاجتماعية. لتنظم وعي الجماهير وترتب صفوفهم في ظل حوار جاد قائم على النقد البناء هدفه تشييد بديل سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي مستقل، ينطلق من الواقع الجزائري وخلفياته التاريخية ويرتكز على الحس السليم والمشترك.

2.3 المثقف الحصيلة عند عمار بلحسن:

ينطلق عمار بلحسن في تحديده لماهية المثقف الحقيقي في نظره من موقف نقدي واضح يرفض فيه التعريفات التوسيعية التي تميع المصطلح وتطلق حدوده المعرفية، فتجعل كل من يحمل ضربا من المعرفة أو الفكر مثقفا فالمثقف حسب رأيه هو منتج المعرفة أو على الأقل هو من يعيد مساءلة المعارف

والأيديولوجيات المستوردة وتَبْيِئَتِهَا حسب متطلبات مجتمعه وظرفيته التاريخية ومعطياته العصرية فيبدع في مجاله كل جديد، وهذا ما يجعل إنتاجه الثقافي أصيلا ونقديا فيقول: "إن المثقف هو منتج الثقافة ومبدع القيم الثقافية، ومكانته تتحدد في عملية إنتاجه للخبرات الفكرية والقيم العلمية والأدبية والفنية. الذي تمثل وهضم نقديا قيم ثقافة مجتمعه وعصره وتراثه وأنتج حقائق وقيم جديدة."[24]

عمار بلحسن من خلال هذا التحديد الوظيفي للمثقف بوصفه منتجا للمعرفة أية معرفة، يعبر عن انزياح مفهومي عن التصور الذي صاغه غرامشي للمثقف الذي يرتبط بوظيفته داخل الطبقة وذلك حين جعل وظيفة المثقف الأساسية اتجاه طبقته في صراع الهيمنة تكمن فقط في انتاج المعرفة الجديدة دون تحديد واضح لموقع المثقف ودوره اتجاه الطبقة التي ينتمي إليها والذي يعد أساس تحليل غرامشي لمفهوم المثقف العضوي كونه فاعلا عضويا ترتكز وظيفته على الصراع الطبقي الحاصل في المجتمع حول حقل الهيمنة.

فبينما يوسع غرامشي مفهوم المثقف ليشمل كل من يعبر عن وعي طبقته ويساهم في تنظيم أعضائها نجد عمار بلحسن يجعل دور المثقف في المجتمع قائماً على معيار الإبداع والإنتاج المعرفي بالرغم من أهميته إلا أنه يغيب عامل مهم في النظرية الغرامشية ألا وهو الانتماء الطبقي. هذا الانزياح المفهومي ينتقل من دراسة سوسيولوجية قائمة على تحليل الصراع الطبقي إلى تعريف إبستمولوجي للمثقف يكون فيه الإنتاج المعرفي هو المحدد للممارسة الثقافية بغض النظر عن موقعه الطبقي، وهذا التصور يؤدي إلى تمييع الحدود الفاصلة بين المثقف وغير المثقف نتيجة، غياب معيار إبستمولوجي وسوسيولوجي دقيق يحدد طبيعة وطرق ومجالات الإنتاج المعرفي الذي يرقى بالمنتِج إلى مرتبة المثقف.

إلا أن عمار بلحسن في نقده لوضع الثقافة والمثقفين في الجزائر يظهر وكأنه يقدّم وصفاً تاريخياً للحقل الثقافي أكثر من أنه يقدم تحليلا سوسيولوجيا للمشكلة،. فبدلا من أن يستثمر عمار بلحسن البعد الجدلي للحقل الثقافي وتجلياته داخل الساحة الثقافية لخلق مثقف نقدي أصيل، يقتصر على اقتراح حل طوباوي يتمثل "في انتظار أجل مسمى هو ظهور نوع جديد من المثقفين «المثقف الحصيلة» الذي يعيش توترات الازدواجية اللغوية من أجل تأسيس بعديه الأساسيين، وطنيته بمفهومها الثقافي المناقض لكل شوفونية ونزعة إثنية عرقية، وتصميمه على المشاركة في الكونية العالمية المعاصرة، بنقل خصوصيته وإيجاد القواسم المشتركة بينه وبين العالم، فكراً وإبداعاً ولغةً."[25] فالمثقف المنتظر عند بلحسن وليد التوتر وليس وليد الانسجام ويؤسس لثقافة هجينة تعبر عن مجتمع هجين متجاوزاً للانقسامات التي تتخره هذا الوصف للمثقف الحصيلة قد يبدو جذابا للوهلة الأولى، لكن هل يمكن أن يولد مثل هذا المثقف فعلا في هذا الوضع؟، أم هو مجرد نموذج معياري لمجتمع يعيش في يوتوبيا مثالية؟، وهل يمكن للمخاض الاجتماعي والثقافي االجزائري الذي يعيش أوج مراحل تشتته وتشرذمه فكريا ومنهجيا وأيديولوجيا أن ينتج مثقفا كهذا؟، لا شك أن عمار بلحسن نفسه لم يكن يتصور ما حدث بعد هذا بفترة قصيرة من طرح دراسته.

4.خاتمة:

يتخذ عمار بلحسن من ثنائية الفيلسوف الإيطالي أنطونيو غرامشي للمثقف العضوي والمثقف التقليدي منطلقا نظريا لبناء نمطية للمثقفين الجزائريين بعد عقدين من الاستقلال. ويفسر غياب المثقف العضوي في الجزائر بغياب أنتلجانسيا جزائرية منسجمة ومستقلة تمتلك مشروعا ثقافيا واجتماعيا ينطلق من رؤية واضحة للعالم.

ويرجع هذا الغياب إلى حالة التشتت التي يعاني منها المثقفون الجزائريون، وعدم وضوح مفهوم المثقف وطبيعة دوره داخل المجتمع الجزائري الوليد.ومن جملة أسباب عدم نشوء أنتلجانسيا جزائرية عدم ارتباط المثقف الجزائري ارتباطاً عضويا بطبقات اقتصادية واجتماعية بنيوية في المجتمع تمكنه من القيام بدوره التاريخي اتجاهها.كما أسهم الانقسام اللغوي في تشظي المرجعيات الفكرية والثقافية والأيديولوجية للمثقفين الجزائريين، بين مرجعية أوروبية حداثية وأخرى عربية إصلاحية مما حال دون تشكل مرجعية موحدة ومشروع اجتماعي وثقافي جامع.

يظل هذا التشخيص للواقع الثقافي، أقرب إلى الوصف العام منه إلى التحليل السوسيولوجي العميق الذي يكشف علاقات القوة والضعف بين فئات المثقفين ويحلل طبيعة الصراع على الهيمنة الرمزية. ويقدم الشروط الاجتماعية والتاريخية التي تسمح بولادة المثقف العضوي. فنستنتج وجود نوع من الانزياح المفهومي عند عمار بلحسن عن المقاربة الغرامشية للمثقف العضوي ووظيفته كفاعل تاريخي اتجاه طبقته داخل المجتمع. إلا أن المثقف الذي يرنو إليه عمار بلحسن لا يعدو كونه حلما طوباويا أقرب للنموذج المعياري منه إلى الفاعل التاريخي.وعليه فإن الحل الأمثل لأزمة المثقف الجزائري لا يتم بالبحث عن نموذج مثالي بل يستوجب تحليلا عميقا للشروط الاجتماعية والثقافية والظروف التاريخية.فاستقلال الحقل الثقافي شرط أساسي لإنتاج معرفة نقدية لا تخضع لإملاءات السلطة أو لظروف العرض والطلب في مناخ تحكمه قوانين السوق.

5.المراجع

[1] كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، ترجمة: جمال بلقاسم، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2018، ص143.

[2]Stevy Scarbrough, Psychology of Human Relations, Chapter 4.2:" Culture and Personality"

[3]Antonio Gramsci, selection from the prison notebooks, international publishers, New York, f-e 1971 p5

[4] أنطونيو غرامشي، دفاتر السجن (مختارات)، ترجمة: معز مديوني وصبا قاسم، منشورات الجمل، بغداد العراق، ط1، 2023، ص102.

[5] خليل أحمد خليل، المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص190.

[6]Antonio Gramsci, selection from the prison notebooks, p10

[7] أنطونيو غرامشي، دفاتر السجن (مختارات)، ص101.

المرجع نفسه، ص99.

[9]Michael Payne & Jessica Rae Barbera, a dictionary of cultural and critical theory, Wiley Blackwell, second edition 2010, p309.

[10]أنطونيو غرامشي، دفاتر السجن (مختارات)، ص103.

[11] عمار بلحسن، أنتلجانسيا أم مثقفون في الجزائر؟، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1986، ص57.

[12] هويدا صالح، صورة المثقف في الرواية العربية الجديدة الطرائق السردية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ،ط1، 2013، ص38.

[13] عمار بلحسن، أنتلجنسيا أم مثقفون في الجزائر؟، ص 59.

[14]المرجع نفسه، ص62.

[15]المرجع نفسه، ص 67.

[16] إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة: محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص169

[17] المرجع نفسه، ص169.

[*] الأنتلجانسيا: هي جماعة المثقفين الذين يمتلكون رأس مال معرفي وثقافي، يساهمون من خلاله في تشكيل وعي الجماهير عن طريق إنتاج الخطابات الفكرية داخل مجتمع ما.

[18] عمار بلحسن، أنتلجانسيا أم مثقفون في الجزائر؟، ص 159.

[19] ينظر، المرجع نفسه، ص160-161.

[20] المرجع نفسه، ص166.

[21] المرجع نفسه، ص167.

[22] المرجع نفسه، ص168.

[23] المرجع نفسه، ص168.

[24] المرجع نفسه، ص183.

[25] المرجع نفسه، ص177.